

مقدونيا وطن الإسكندر الكبير

البلقان الذي ينبع بسحر الشرق والغرب

مقدونيا هذه البلاد الجميلة التي تقع في أوروبا الجنوبيّة لا تزال مستبعدة من الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي بسبب فيتو حارتها اليونان التي ترفض أن تحمل الاسم نفسه لمقاطعة مقدونيا اليونانية بحجة الخوف من ظهور مطالبة إقليمية بضمّها إلى جمهورية مقدونيا، رغم أن التعديل الثاني في دستور هذه الأخيرة يمنع احتياج أقاليم البلدان المجاورة.

ولعل اليونان تحمل في لوعيها التاريخي هاجس ظهور إسكندر عصري يستحضر بطولات الإسكندر الكبير المقدوني الذي أخضع المدن اليونانية لسيطرته واحتاج الغرب والشرق قبل ألفي سنة.

فكأن التاريخ في مقدونيا يحاول إحضارها لقوانين الجغرافيا السياسية التي تحكم فيها الدول الأقوى، رغم أن تاريخها الشخصي أثبت أنها تعرف كيف تكون صانعه.

ومقدونيا اليوم التي تعيش في كواليس ذاكرتنا نحن أبناء الشرق وربما أبناء الغرب أيضاً، تقع في شبه جزيرة البلقان، تحيطها اليونان وبيلغاريا وصربيا وكوسوفو والبانيا، تحاول أن تعود إلى خريطة العالم الحديث حاملة معها كل أمجاد اسكندرها الكبير.

فجعلت علمها الوطني تتوسطه نجمة فرجينا التي وجّدت على مقبرة فيليب الثاني والإسكندر رغم أنها قلّصت عدد خطوطها من ١٦ إلى ٨، ومطلقة على مطارها الدولي في عاصمتها سكوبيا «مطار الإسكندر الكبير» مما يثير حفيظة اليونان.

وفي التاريخ أن مقدونيا خضعت للإمبراطورية البيزنطية، ثم الإمبراطورية العثمانية وكانت ضمن المعسكر الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية إلى أن تهاوى مع سقوط جدار برلين عام ١٩٨٩، وعادت مقدونيا لتلملم بقایا تاريخها عام ١٩٩١ وتكون دولة مستقلة تعرف بـ«جمهورية مقدونيا» بعد أن كان اسمها «جمهورية مقدونيا الاشتراكية».

سكوبيا العاصمة: التاريخ الذي ابتلعه أحشاء الأرض
سكوبيا عاصمة مقدونيا والمدينة التي ولدت فيها الأم تيريزا. يعود تاريخها إلى عهد الرومان وكانت جزءاً من الإمبراطورية البيزنطية ثم إحدى ولايات الإمبراطورية العثمانية وعرفت وقتها باسم أوسكوب ثم انضمت إلى يوغوسلافيا وعادت إلى أحضان مقدونيا لتكون عاصمتها.

عرفت المدينة نمواً بعد الحرب العالمية الثانية في عهد الديكتاتور تيتور، عَكَّرَته قسوة الطبيعة بزلزالها الذي ضرب سكوبيا عام ١٩٦٣ ودمّرها بشكل شبه كامل.

ونتج عن سقوط النظام اليوغسلافي واستقلال مقدونيا إغلاق عدد من المصانع، لتحاول المدينة جاهدة الانضمام إلى الاقتصاد الأوروبي. لا تخلو الهندسة المدنية للمدينة العصرية من الفوضى المعمارية التي تعكس روح النظام الشيوعي المتقطّفة.

ولكن مهما فعل التاريخ والجغرافيا بسكوبيا، فإنها مدينة متعددة الوجوه رسّمتها الحضارات التي مرّت عليها عبر التاريخ القديم والحديث لترأهااليوم محتشدة ينبعق منها مزيج من الثقافات متجلساً بحجارة ومعالم تاريخية انفلتت من زلال غاضب.

يخترق سكوبيا نهر فاردار الذي يقسم المدينة قسمين يتواصلان عبر جسر كاميني موست العثماني والذي يعتبره سكان العاصمة رمزاً مهماً للوحدة وشاهداً على الحضور العثماني في المدينة خلال قرون، ويقوم الجسر على إثنى عشر قوساً.

تقع في الضفة الشمالية للمدينة الأحياء التركية التي يضربيها الزلزال، بينما تقع في الضفة اليمنى الأحياء الجديدة التي بُنيت بعد الزلزال وتضم مجموعة من المباني العصرية الحكومية تشير إلى انفتاح سكوبيا على الغرب بعد خروج العثمانيين.

يضم وسط المدينة ساحة كبيرة تعرف بساحة مقدونيا. ورغم أن هذه الساحة ليس فيها ما يدهش السائح لجهة الهندسة المعمارية فإنها تشكل فخر سكان سكوبيا لأنهم يرون فيها رمز الحرية بعد قرون من الإحتلالات. وهي ملتقى السكان بلا منازع، يرتادون المقاهي المنتشرة في أرجائها.

تعتبر قلعة كالا بأبراجها المرّيعة وأطلالها التي تعود إلى القرن الحادي عشر مقصد سكان سكوبيا وسياحها.

كما تضج المدينة بالمعالم الأثرية العثمانية منها جامع ألاديا وجامع مصطفى باشا، وحمام دوت باشا التركي الذي يعود إلى القرن الخامس عشر، وخان القوافل «سولي آن» الذي تحول إلى غاليري للفن.

ولعلّ بازار كارسييا أكثر الأماكن التي تعكس نمط الحياة التركية بكل أبعادها الثقافية والاجتماعية.

فهذا السوق أكثر أصالة من بازار اسطنبول نفسها عاصمة الإمبراطورية العثمانية سابقاً وأكثر غرابة، يدهشك بالبضائع التي تعرض فيه بأسعار زهيدة فهو يعكس روح الشرق بوجهه المسلم وتألق مقدونيا الأوروبية، في عاصمة حيث الهويات الدينية وممارسة طقوسها تبرز بقوّة في الأحياء التركية والأحياء السلافية.

في سوق كارسييا يتحول السائح إلى محطة أنظار مندهشة وفضولية، ولكن الابتسامة تظهر على ثغر البائع بمجرد أن ينطق السائح بكلمة حتى لو لم يفهم لغته فنزال الحاجز الثقافي بينه وبين البائع الذي يبذل مجدهاً ليسعد السائح فيعرض عليه تذوق كاجماك (وهو نوع من الأجبان قريب إلى القشطة العربية وتعتبر من المأكولات التقليدية التركية وببلاد البلقان وتقدم على الفطور)

إضافة إلى بازار كاسيا هناك سوق بزيستان الذي يعود إلى القرن الخامس عشر، وسوق بيتيزار الذي يجذب السياح ببرج الساعة الذي تتوسطه.

رغم الحضور القوي العثماني في مقدونيا، توجد بعض الأماكن الدينية المسيحية، مثل كنيسة الصعود، وكنيسة القديس كليمان- دوريد، وكنيسة القديس دمترى وكاتدرائية القديس كليمانت، فضلاً عن مجسم للأم تيريزا ومنزل خاص بها تعرض فيه تذكارات هذه الراهبة التي نذرت نفسها لخدمة المحتاجين في كل أنحاء الكورة الأرضية.

رغم المآسي التي مرّت بها سكوبيا تحتفل في الأول من أكتوبر/ تشرين الأول من كل عام بمهرجان الجاز الذي انطلق عام ١٩٨١، ليتطور سنة بعد أخرى ويصبح مقصد هواة الجاز من كل أرجاء البلقان. مما أجمل أن تشارك هذه المدينة التي تعيش في حواسِي التاريخ في احتفالها بالحياة، لتعلّم كيف يُصنع التاريخ.